مفهوم الخير والشر في الفكر الإنساني عند بعض الفلاسفة
(دراسة تحليلية مقارنة)

د.سمية الطيب الطاهر عمران
كلية الآداب – جامعة الزاوية

المقدمـــة:

كانت قضية الخير والشر– ولا تزال – مثار اهتمام الباحثين في الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً، كما كانت موضع خلاف كبير بين جميع الفرق لعباده.، ورغم قدم هذه المشكلة فمازالت حية ومعاصرة لأنها مشكلة كل عصر وكل جيل، فهذه القضية موجودة في العقل الإنساني في نماذج مختلفة .

تعددت الحلول التي قدمها الإنسان لعلاج هذه المشكلة حسب تصور كل دين لطبيعة العلاقة بين الله وعباده، وحسب تصور كل دين، أو مذهب فلسفي قديماً أو حديثاً من وضع الحلول التي تناسب طبيعته لعلاج هذه المشكلة، فالإنسان يتنازع في هذه الحياة عاملاً الخير والشر، وكثيراً ما ينساق إلى أحدهما بدافع داخلي أو مؤثر خارجي. والدين من أهم أهدافه وقاية الإنسان من نزعات الشر ببيان ضرره والتحذير منه ودعوة الذين تورطوا فيه إلى الاستقامة تبعاً لما رسمه الله لعباده .

إذن فمسألة الخير النسبية، خاصة بأفعال الإنسان الاختيارية ،وللفلاسفة وغيرهم أقوال متضاربة حول الخير والشر ،فمنهم من قال: لا وجود لهما بالذات .بل هما من الأمور النسبية، فرب شيء يكون خيراً عند إنسان شيءً عند آخر، كل بحسب شعوره وظروفه وتقديره، وعلى ذلك الكثير من أهل هذا العصر .

ويلاحظ بأن هذا القول أن صدق في شيء فأنه لا يصدق في كل شيء.. فالصحة المخاطب: خير عند جميع الناس بل يطلقون عليها بالخصوص كلمة خير بلا قرين معينة،، وذلك حين يقول أحدهم للآخر كيف أنت؟ ويجيب المخاطب: بخير فيفهم السامع أول ما

يفهم الصحة والسلامة من كلمة خير ولو كانت الصحة خيراً عند إنسان دون آخر لما فهم السامع هذا المعنى من كلمة خير.

سنحاول من خلال هذا البحث الإجابة عن بعض التساؤلات الآتية.

هل الخير بذاته موجود؟ وهل كل ما فيه نفع وصلاح؟ وهل الشر بذاته موجود أيضاً، وكل ما فيه ضرر وفساد؟ لان الغرشر، هذه الدراسة هي أن نعرف قيمة الشيء هل هو خير أم شر، حق أم باطل؟ لأن موضوع البحث هنا هو الخير والشر بذاته، ولاشك في وجوده والدليل عليه بديهة العقل، فلقد اتفق الناس جميعاً على أن الصحة خير، والمرض شر، وأن الشجاعة فضيلة، والجبن رذيلة ولو لم يكن للخير والشر وجود في ذاته لما وجدت الشرائع والقوانين، ولا أمكن التحاكم إلى شيء. ولقد أقضت هذه الدراسة أتباع المنهج التحليلي المقارن .

حيث قسمنا هذا البحث إلى النقاط الآتية.

أولا: الإنسان ومشكلة وجود الخير والشر عند بعض الثقافات.

كان للبحث في الشر والتمييز بينه وبين الخير مكانة عظيمة في التفكير الإنساني منذ أقدم العصور. ولذلك لم يخل مذهب قديماً أو حديثاً من وضع الحلول التي تناسب طبيعة هذا المفهوم ومن المذاهب التى تناولت مفهوم الخير والشر .

أ- البوذيـــة:

تعد البوذية – ديانة هندية قديمة – تعتقد أن فكرة الإحساس بالألم والشر قد سيطرت علي عقول البوذيين وشكلت الجوهر الأساسي لمذهب بوذا.واعتبرت الحياة كلها إما ألم واقعي يتقلب فيه الإنسان طيلة حياته.وإما سرور ولذة سريعة وخاطئة ولابد أن تنتهي حتماً إلى الألم . وسرعان ما امنه، أن سر هذا البلاء وسبب هذا الشر هو الجهل الذي يجب التخلص منه، غير أن بوذا اعتقد أن التخلص من الجهل لا يكون إلا بالقضاء على الشهوة التي هي السبب الرئيسي في وجود الإنسان المتألم . وذلك عن طريق النجاة بنفسه من علائق الشهوة فهي تجربة ذا الأرواح، الإنسان عن نفسه ومفهوم عقيدة الكارما في البوذية يعني أن الخلاص يجب بالضرورة أن يكون خلاصاً ذاتياً، كما أن الخطيئة نفسها ذاتية فالإنسان هو المضطر إذا أراد النجاة أن يتقي الوقوع

في الخطيئة وترتبط هذه الفكرة عند بوذا بفكرته عن تناسخ الأرواح، واستعدادات كل إنسان المادية والروحية. ويرجع مصدر الشر عنده إلى طبيعة الإنسان نفسه وليس إلى المصدر الخارجي.[1]

ب-الزرادشتية (583) طويل لاديانة الفرس القديمة، في حقيقة الأمر فإن الزرادشتية ترجع أصل الشر إلى عامل خارجي عن الذات الإنسانية – وهي تختلف مع البوذية في ذلك – حيث أخذ زرا دشت بمبدأ التثنية وردهما إلى أصلين متضادين: مبدأ الوجود، النور والظلمة، وقد امتزج النور والظلمة لسبب ما، فحدث عن هذا الامتزاج صدور الموجودات كلها[2] حيث يكون هناك إله خاص بالخير، وإله خاص بالشر. ويقوم بين هذين الإلهين صراع طويل لا ينقطع، لأن كلاً منهما يحاول السيطرة على العالم الإنساني .وسرعان ما ينتصر إله الخير والنور ويقهر إله الظلام والشر، وهذا الانتصار لا يكون عشوائيا، وإنما بالجهاد وبالعمل علي قتل قوى الشر في الإنسان.ويقول الزرادشتيون: إن الإنسان ما دالشر، الذي يختار بإرادته الحرة الخير أو الشر– وهذا القول قريب جداً من قول المعتزلة في حرية الإرادة الإنسانية – فان كل الأفعال والأفكار التي تصدر عنه، تكون مسجلة في كتاب الحياة[3] وجاءت القوانين الأخلاقية في الديانة الزرادشتية بسيطة للغاية .إذ تعتبر أن الطبيعة لا تكون خيرّة إلا إذا منعت صاحبها أن يفعل بغيره ما ليس خيراً له هو نفسه، حتى أن بعض المستشرقين ذهبوا إلى أن هناك شبهاً بين الزرادشتية وبين الإسلام .ولم ينتبهوا إلى أن المسلمين قد صوروا المذهب بصورة التوحيد كما فعلوا دائما حتى مع الفلاسفة ما قبل سقراط، والحقيقة أن الزرادشتية صورة متناسقة إلى أكبر حد مع المسيحية[4] بمعنى أن هذه الدينية نشأت من فكرة أخلاقية بحثه، من محاولة تفسير الشر في العالم . وبهذا أدى البحث في الشر إلى تلمس الأصول التي يقوم عليها الخير والشر، ولم يستطع الحكماء القدامى فهم صدور الفكرتين عن موجود واحد يوجدهما معاً، إنما ارتفعوا بخيرية الصانع وطيبته إلى أعلى مكان . وكان لابد إذن من وضع مبدأ أخر ينتج الشر، والعالم نزاع بين المبدأين فهما النور والظلمة .

ج-المانوية:

وهو نسبة إلى ماني بن فاتك – مؤسس الديانة المانوية –ما بين216– 274)، حيث اعتبر ماني أن دعوته تتهم ديانات بوذا، وزرادشت، والمسيح، إذ أن ديانات هؤلاء الأنبياء ما هي إلا شذرات وقد أفسدها أتباعهم. حيث ارتكزت فكرته على الصراع بين قوتين الخير والشر والنور والظلمة[5] وهذان المبدآن موجودان أوليان، وأنهما متلازمان في كل شيء .وإن النور قد أمتزج بالظلمة امتزاجاً عشوائياً،وكل ما في العالم من أصناف الشر فهي من مبدأ الظلمة. ويقول الشهرستاني: "أن النور والظلام قد امتالنور،د ماني – بالخبط والاتفاق لا بالقصد والاختيار ...وما في العالم من منفعة وخبر وبركة فمن أجناس النور، وما في العالم من مضرة وفساد وشر فمن أجناس الظلمة ...."[6] وسبب انتشار الشر في اوالمعاد.ع إلى امتزاج النور بالظلمة. إن الخلاص لايكون إلا بالقيامة والمعاد .وهذا لا يكون إلا ببطلان امتزاج النور بالظلمة. وما نفهمه من هذه الديانات أن الشر هو الخروج عن طريق الخير، بحيث لا يوجد إلا في حال الانحراف. فالشر إذن هو معنى سلبي لا صفة إيجابية. والله برئ من صدور الشر عنه حتى في الأقل القليل ،هذا بالإضافة إلى أن الشرور الحاصلة في العالم إنما هي ابتلاء من الله تعالى لعباده كي يمتحن إيمانهم ثم يحاسبهم بما يستحقون .

وقد حاول القاضي عبد االشر، المعتزلي (325هـ) تسجيل اعتراضاته في شكل ملاحظات في هذه المسألة.

1- أن الخير لا يعتاد الشر، وأن الشيء الواحد قد يحدث على وجه يكون خيراً وقد يكون شراً، إذا أريد بالخير والشر اللذة والألم أو أريد الحسن والقبح .

2- فلسفة الثاليونانية: في خطها الأساسي إلى أن العالم مركب من عنصرين النور والظلمة مثل هذا الخط يصبح هشاً ومتداعياً إذ يجوز أن يكون المحدث أحدثهما مركبين، وأن التركيب محدث عن هذين الأصلين، فينبغي أن يكون لهذا التركيب محدث قديم[7] وهو بذلك قد فند جملة الاعتقادات الثنائية وتصدى بالنقاش والحوار إلى إسقاط مقولاتها .

د – الفلسفة اليونانية:

تختلف الفلسفة اليونانية عن الديانات السابقة في نظرتها إلى الخير والشر. وعلى رغم اختلاف مذاهبها في ماهية الفضيلة والرذيلة إلا أنها تتفق فيما بينها على أن الله ليس مصدراً

للشر ولا يصدر منه الشر أبداً، والإنسان بماهيته وطبيعته وبمقدار بعده عن الله يكون مصدراً للشر في العالم. وعند سقراط (469- 399ق.م) فواجب النفس أن تتهيأ وخيره ولاخر بممارسة الفضيلة، وهي تمارسها حتماً وتؤثرها علي كل لذة متى عرفت ذاتها أو أيقنت أن الفضيلة خيرها الحقيقي، فإن كل موجود مطبوع علي طلب الخير والهرب من الشر ولذلك كانت عنده الفضيلة علم، والرذيلة جهل. أما الشرير فرجل جهل نفسه وخيره ولا يمكن أن يقال إنه يرتكب الشر عمداً[8] وعند أرسطو (384- 322 ق.م) فالإنسان هو فاعل الشر ومصدره في الفلسفة اليونانية، والطريق إلى الخلاص من الشر مفتوح أمام الإنسان بأن يتمثل بالله في كل شيء، فالله خير محض لا يصدر عنه الشر وكلما ازداد الإنسان تمثلاً بالله فأنه يزداد تخلصاً من الشر والشرور.[9]

د-المسيحية:

لاشك أن مفهوم الخطيئة الأولى هي سر الخطيئة هو مسيحية، بل هي أساس وجود الشر في العالم انطلاقاً من موقفهم من هبوط آدم من الجنة ولذلك فالإنسان طبقاً للمسيحية لا يرث خطيئة آدم الفعلية بل توارث عنه ضعف الطبيعة البشرية التي توقعه في الخطيئة .ويبدو أن ما يعطى الحتمية للوقوع في الخطيئة هو أنها أصبحت جزء من طبيعة الإنسان، وبذلك أصبحت المسئولية جماعية.

ويرى بعض الباحثين – ونحن نتفق معهم –أن المسيحية جسمت وطأة الخطيئة الأولى لتعادلها بعقيدة النعمة الإلهية وبصلب المسيح، وأصبحت المشكلة قائمة على المسؤولية الجماعية، حيث أن الصلب يؤدي إلى انفكاك المسؤولية الفردية التي يحرص الإسلام عليها[10] فإذا كانت هذه الخطيئة علي هبوط آدم ومن ثم ابتداء التكليف ألا يصح أن تكون علة الشرور والآثام. وهذا رأي كل من فلاسفة المسيحية أمثال القديس أوغسطين (354-430) وباسكال (1623-1662) غير أن الالتزامات الأخلاقية عن الخطيئة الأولى خطيرة، إنه حسب قول باسكال نفسه يبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يعاقب الإنسان من أجل خطيئة أقترفها أحد أسلافه منذ أكثر أربعة آلاف سنة[11] ومع اعتراف بعض المسيحيين أنفسهم برفض العقل لهذه النظرية فإن المسيحي نفسه يقرر أن الشر أو الخطيئة هي التي تقع من الإنسان، والإنسان بحريته وبطبيعته تغريه الفضيلة كما قد تغريه الرذيلة .

معنى ذلك أن الخطيئة تضعف الميل الطبيعي الموجود عند الإنسان نحو الخير ولا تمحوه بل يستطيع استرداده وذلك إما بتحكيم العقل والالتزام به وهو بذلك يجعل الطريق مفتوحاً لاكتساب الفضائل وكل ذلك يهيئ للتمتع بنور النعمة والحكمة الإلهية .

يتضح لنا من خلال ما تقدم أن كل مذهب من هذه المذاهب قد عالج فكرة الخير والشر بما يتناسب وطبيعته في تصويره علاقة الله بالإنسان.

ثانياً- مفهوم الخير والشر عند بعض الفلاسفة:

لقد ذهب الفلاسفة إلى القول بأن الخير يصدر عن الله تعشخص. الطبع والعلة، فالله عالم لذاته بما يجب أن يكون عليه الخير في الوجود وهو علة لذاته في صدور الخير عنه حيث يعقل نظام الأشياء على الوجه الأبلغ في تحصيل الخير لها ثم يفيض عنه ما يعقله نظاماً وخيراً على الوجه الأبلغ .

أن معرفة الخير والشر تختلف حسب وجهة نظر كل مذهب وكل شخص. فعلى سبيل المثال يرى الحدسيون أن الخيرية تخضع لقوانين عامة ومبادئ مطلقة لا يحدها زمان ولا مكان وأن الذي يقاس به الخير ويميز به بين الأفعال الخيرة والأفعال الشريرة لا يتغير بتغير الظروف والأحوال، مطلق من قيود الزمان والمكان[12] غير أن التجريبيون يقولون أن الخير والحرة.حق والباطل مجرد أفكار اصطلح عليها الناس في ضوء التجارب التي يعشونها والظروف التي تسود حياتهم، ومن التجريبيون هؤلاء الغائيون حيث يقولون بأن الخير الأقصى هو مقصد الناس في كل زمان ومكان ويرد به السعادة فيما قال أرسطو قديماً (385). في رأى هويز (1588) أن الفرق بين الخير والشر حقيقة موضوعية مستقلة عن كل إرادة إنسانية أو إلهية، لأن في طبية الفعل الخيّر ما يجعله خيراً وليس في وسع الإنسان أن يجعله شراً . وإلى ما يشبه هذا ذهب المعتزلة في الإرادة الحرة[13] في حين يعتبر المذهب الحدسي أن المستوى الأخلاقي خارجاً عن طبيعة العقل البشري، وأن الخيرية مردها إلى الله، والخير خير لأن الله أمر به إلى هذا ذهب جيرسون (1331) ودنزسكوت (1308) وناهضهم في هذا أكثر ممثلي الكنيسة في العصور الوسيطة توما الأكوينى (1225م) وجميع علماء اللاهوت في أوربا وهو قول يشبه قول الأشاعرة في أن مقياس الأخلاقية أو الخيرية لا يقوم في طبيعة الأفعال بل في إرادة الله. ثالثاً:أشعري يريد إثبات الإرادة المطلقة

ﷲ، في المقابل أن فولتير (1694م) يتخذمن وجود الشر والظلم في العالم سبيلاً إلى التشكيك في وجود الله[14] ،أما عن كانط (1724م) وهو من أتباع المذهب الحدسي الذي يرد مقياس الخيرية إلى طبيعة العقل البشرى، وأن المستوي ثابت لا يتغير عام مطلق من قيود الزمان والمكان والظروف والأحوال، مرهون بإرادة الجنس البشري[15] ،أما سبينوزا (1632م) فأنه ينفي فكرتي الخير والشر ويقول أن الله فوق الشر والخير على السواء من حيث إنهما من تقييم الإنسان ،وتلك نظرة ضيقة محدودة لحقيقة ما يجرى في الكون[16] وانتهى الطبيعيون على اختلاف مذاهبهم إلى أن المثل العليا نسبية وليست مطلقة، واستبعدوا الخير الأقصى من مجال البحث العلمي الخلقي، لان الخير عندهم اصطلاح ولد في زمن معين ونشأ في بيئة معينة ولقد أيد الاتجاه الذاتي في الأخلاق، ظهور نظرية النسبية التي نادى بها، أينشتاين (1955م)، فاعتبر الخير أو الشر نسبياً يتوقف على زمانه ومكانه، وأصبح من المعروف في نظر أتباع هذا الاتجاه أن يعتبر الفعل الإنساني خيراً في مكان وشراً في مكان آخر، ولأشيء وراء ذلك يمكن اعتباره خيراً مطلقاً . [17]

ثالثاً – مفهوم الخير والشر عند بعض فلاسفـــــة الإسلام:

يختلف مفهوم الخير والشر الحقيقي في الفكر الإسلامي عنه عند جميع المذاهب والديانات الأخرى قديماً وحديثاً. ففي الأديان القديمة دائم هناك صراع بين قوتين أو إلهين إله الخير أو النور، وإله الشر أو الظلمة، وبأن الخير والشر ضدان أزليان، وهما في صراع دائم .

فلقد تعارفت جميع المذاهب على أن الشر هو ما ينزل بالإنسان والمجتمع من المصائب التي تحل به، كفقد الأهل والمال، وأيضاً شاع بين الناس أن الآلام والأمراض والفقر كلها شرور تصيب الإنسان، حقيقة أن هذه الأمور كثيراً ما تصيب الإنسان لأنها سنة من السنن الكونية التي لا تختلف إذا ما توافرت أسبابها، ومن الخطأ أن تسمي هذه الأمور شروراً بل هي محنة وابتلاء من الله تعالى، كما يسمها الشرع .

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا، هل الدنيا امتحان للبشر ؟ القرآن الكريم اعتبر الحياة الدنيا موضعاً لامتحان الناس، وأنها وسيلة للفوز بالسعادة في الدنيا الأخرى لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ

اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾[سورة العنكبوت، الآيتان : 3،2] والمعني هل توهم الناس أنه يكفيهم أن يقولوا آمناً ليعتبروا علي حق دون أن يُمتحنوا

فيظهر أنهم صادقون أو كاذبون ؟ ولقد اختبر الله تعالي الأمم السابقة بالتكاليف والمحن ليتميز الصادقون من الكاذبين، فليس مناط النجاة في الإسلام مجرد الانتساب إليه بل تظهر آثار تعاليمه علي المنتسب إليه في أحرج ساعات الضيق وفي أوقات رفاهية النفس.

فالخير والشر اختيار وامتحان لجوهره ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[سورة محمد، الآية :31] وفي قوله تعالى أيضا: ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[سورة الأنبياء، الآية : 35] هذه النظرة للحياة هي أكبر حافز للأفراد للرقي الأدبي، و للجهاد النفسي لمغالبة الشرور التي تميل إليها النفس، وهي تغاير بعض نظريات الأديان التي تعتبر أتباعها أن الله يحابيهم فيعفيهم من جهاد النفس . أن الله سبحانه، لم يخلق الخلق عبثاً علي وجه يخلو من الحكمة، ولم يتركه متخبطاً في معمياته، بل خلق ما خلق علي وفق النظام الكلي ومصلحة العباد فضبط أعمالهم وكتب آجالهم في كتابه المبين إلى يوم الدين، لا طمعاً بطاعتهم، ولا خوفاً من معصيتهم، لأنه تقدس ذكره، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية فهو الغني بذاته. (18)

مفهوم الشر عند المعتزلة:

يعرّف المعتزلة الشر بأنه: "الضرر القبيح وما يؤدي إليه، وذلك في مقابلة تعرف الخير بأنه النفع الحسن وما يؤدي إليه"(19) فالضرر على لنا أن نسميه شراً فلا بد أن يكون قبيحاً، ويحقق قبح الضرر بأمور منها غلي سبيل المثال:

1- كونه غير مستحق 2- أن يقصد به العبث كأن يكون فعله خالياً عن الغرض والحكمة المطلوبة وإذا انتفت صفة القبح فلا يجوز أن نسميه شراً إلا على سبيل المجاز لا الحقيقة . فلا يقال في الضرر أنه شر كالحدود مثلا. وكذلك لا يقال في الضرر المقصود لحكمة – كالعمي والعجز –أنه شر إلا علي سبيل التجوز في الاستعمال اللغوي فقط . وإذا خفيت على المرء أوجه الحكمة في الفعل الذي لحقه منه الضر، فلا يصح أن يصف بأنه شر لاخير فيه، كما يقع في هذا الخطأ كثير من الناس حيث تغيب عنهم وجوه الحكمة في الفعل

لقصور إفهامهم فيصفون الفعل بأنه شر، ويسندون الفعل إلى الله، فيكون الله عندهم فاعلاً للشر والله تعالى يجب أن ينزه عن كل ذلك، وجميع ما ينزل بالعباد من ألوان الضرر وصنوف البلاء يجب أن يفسر على أساس أن الله حكيم لايفعل العبث وأنه سبحانه وتعالى عدل لا يظلم أحداً من خلقه.[20]

فالله تعالى قد تنزه عن كل قبيح ومن ثم فأفعاله لا تكون إلا حكمة وصواباً وقد ينزل الضرر بالإنسان من آلام وأسقام ويتعذر وصف ذلك بالخير وإن كان ذلك من الله حسناً، كذلك قد يكون في عدل القاضي ضرر وذلك منه حسن وإن لم يكن خيراً .

فوجهة النظر لا تنفي وجود الشر وتراه حسناً إن كان لطفاً حيث استبدلوا بالخير والشر لفظي الحسن والقبح وهما صفتان أدق في التعبير عن المستوى الأخلاقي حسب وجهة نظر المعتزلة[21] وهنا يقول ابن مسكويه (1030م–421هـ) أن الخير هو كمال الوجود ولكي يبلغ الموجود غاية الخير، لابد له من استعداد فطرى يميل به نحو غايته تلك : فالناس يختلفون في استعداداتهم الفطرية. منهم أخيار بالطبع –وهم قلة– لا يفسدهم الشر، لأن ما هو مفطور بالطبع لا يتغير إلى ضده؛ ومنهم أشرار بالطبع –وهم كثرة – لا يتحولون إلى الخير أبداً ؛ ومنهم فئة محايدة بفطرتها فلا هي خّيرة بطبعها ولا شريرة بطبعها، وهذه الفئة وحدها هي التي تفلح فيها التربية[22] إذ بالتدريب ينتقلون إلى الخير . إذا كان تدريباً صالحاً، كما أنهم ينتقلون إلى الشر إذا كان تدريباً فاسداً .

والإنسان الخّير إنما يسعد بخير يتهإذا صدرت عن طبيعته الإنسانية الأصلية، ألا وهي العقل. وليست السعادة أو الخير على متديناً، حدة عند الأفراد جميعاً، بل أنها تتفاوت في الدرجات، علي أن الخير الاسمى لا يمكن تحقيقه على يد فرد واحد، بل لا بد أن يتعاون في سبيله أفراد كثيرون؛ ويترتب علي هذا أن حب الإنسان للإنسان هو رأس الفضائل وأول الواجبات، وبغيره لا يكون اجتماع ؛ ولهذا فعلم الأخلاق لا تتم أركانه إلا والإنسان عضو في جماعة، وليست الصداقة – أي حب الإنسان للإنسان – امتداداً لحب الإنسان لنفسه حتى يشمل غيرها، بل هي تضييف لحب الذات ؛ وعلى هذا فالفضائل إنما تظهر في مجتمع ولا تظهر في عزلة الراهب ...نعم قد يكون الراهب الناسك متديناً، لكن لا يكون خلقياً في أفعاله وهو منفرد، لأن الأخلاقية شرطها أن تكون ثمة صلة بينه وبين الآخرين[23]، مت الشريعة

فهماً صحيحاً لكانت مذهباً خلقياً أساسه حب الإنسان للإنسان، فالدين كله رياضة للنفوس على الحد من ذواتها في سبيل الآخرين[23] ،إذن هل الإنسان مسئول عن الشر ؟ يحكي إبراهيم بن سيار النظام (المجاز،845م) عن قاسم الدمشقي أنه قال: "أن الشر في الحقيقة هو المعاصي الموصلة إلى عذاب الله. وإن الأمراض والأسقام شر على المجاز، فأما في الحقيقة فهي خير وصلاح ونفع، ..والفساد في الحقيقة هو المعاصي، وإن ما يفعله الشراً، القحط والجدب وهلاك الزرع فإنما ذلك شر وفساد على المجاز لا في التحقيق"[24] وهذا الكلام عن الشر موجود عند القاضي عبد الجبار المعتزلي (326هـ) "كل ألم وغم أو ما يؤدي إليهما من غير أن يعقبا نفعاً يوفى عليه، وكل ما هذا حالة يوصف بأنه ضرر ومضرة فلذلك توصف المعاصي بأنها ضرر من حيث تؤدي إلى العقاب"[25]، وانتقلت هذه الفكرة إلى الشيعة الزيدية فأخذ بها الشريف المرتضي (306هـ) حيث صرح بأن الشر الذي هو ظلم وفسوق وعصيان ليس من عند الله بل هو من الإنسان مصدر الشرور[26]، لقد حاول المعتزلة تفسير معنى الشر دون المساس بوحدانية الله تعالي وعدله . وعلي ذلك فان هناك شبه اتفاق بين رجالات المعتزلة على الأمور الآتية : -

1- أن الأفعال الكونية الصادرة عن الله تعالى ليست شراً، وإنما هي نفع وصلاح للعباد .

2- أن الشر في الحقيقة من أفعال العباد أنفسهم، فهو المعصية والسيئة وفعل القبائح، وهذه الأمور لا تضاف إلى الله تعالى لأنها من فعل العبد باختياره.

3- اذا كان الشر ينحصر في المعصية وفعل السيئات فمعنى هذا أنه لا يصح أن ينسب الشر إلى الله تعالى لا خلقاً وإيجاداً ولا قضاءً وقدراً . هذه الأمور كلها تؤدي بنا إلى القول بأن أصل الشر يكمن في الإنسان واختياره الشر على الخير، والمعصية علي الطاعة والسيئة على الحسنة . وهذا الكلام يتفق تماماً مع الآية الكريمة : ﴿ الْخَيْرُ إِنَّكَ بِيَدِكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[سورة آل عمران، الآية : 26] ويحرص المعتزلة من وراء ذلك على تنزيه الجانب الإلهي عن فعل الشر، لأنه لا يجوز عقلاً ولا شرعاً أن يريد الله الشر من العباد، وإن، يقضيه عليهم ثم يحاسبهم عليه في الآخرة، وموقفهم من هذه القضية يتصل بموقفهم من قضية العدل والحكمة الإلهية، فالإنسان عندهم مسئول عن إحداث الشر في الأرض، وهو مسئول أيضاً عن طغيان عوامل الشر وسيادتها على عوامل الخير، لأن الله تعالى قد أعطاه

القدرة الصالحة لفعل الضدين فيستطيع أن يفعل بها الخير كما يفعل الشر، ولكنه اختار فعل الشر والقبيح بحريته واختياره فكان مسئولاً عنه[27] إذن المحرك الأساسي لها نحو هذا الفعل أو ذاك هي إرادة الإنسان وقصده من الفعل، قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[سورة الإنسان الآية :3] فالله تعالى قد هدى الإنسان السبيل الذى يصلح أن يؤدي به الخير وإلى الشر، فإذا ما امتزجت إرادة الإنسان بالفعل فإن هذا السبيل يصبح إما سبيل خير وإما سبيل شر، فيكون الإنسان نفسه إما شاكراً لربه وإما كفوراً لنعمه . ولقد تأثر بموقف المعتزلة هذا في تفسيرهم لمعنى الشر الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية حيث أرجع كل منهما الشر إلى نفس الإنسان باعتبارها ظالمة جاهلة، جعلا الشر ليس إلا المعصية والعقوبة[28] وما نستنتجه من ذلك أن من المؤكد أن فكرة العدل الإلهي عندهما ترتبط بمسألة الخير والشر والإرادة الإلهية . فهم يرون أن إرادة الشر أو الظلم لاتتسق مع حكمة الله وعدله. فالله يريد الخير لأنه حسن، ولأنه أصلح للعباد، والله لا يريد الشر لأنه قبيح وضار بالإنسان . والحق في نظر المعتزلة أن الله تعالى عادل، وأنه يريد الخير والهداية لجميع البشر، وأنه يخلق الأسباب التي تؤدي إليهما أما الإنسان فهو الذي يختار بإرادته جانب الخير أو جانب الشر[29] وهكذا يكون للثواب والعقاب معناهما. وقد أستدل الالملائكة على بآيات قرآنية تنفي الظلم والشر والقبح عن الله تعالى مثل قوله تعالى:﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ ﴾[سورة آل عمران، الآية : 108] وإلى مثل ذلك ذهب ابن رشد، (1126–1198) وهو يوافقهم في أن الله تعالي حكيم وعادل، وأنه يفعل الصلاح والأصلح لعباده، ومع ذلك فهو يخافهم في مسألة خلق الشر وإرادة الله له . فيصرح بأن الله يخلق الشر كما يخلق الخير، سواء بسواء، وهو يريده أيضاً، ولكنه لا يريده لذاته ؛ بل من أجل ما يترتب عليه من خير هو صلاح العالم، مثال ذلك أن الله يخلق أسباب الشر والخير في الإنسان، ويعلم أن في ذلك صلاحه، لأن خلق الشر القليل إلى جانب الخير الكثير أفضل وأصلح من انعدام الخير الأكثر الذي يشوبه قليل من الشر. ولقد اعترضت الملائكة على خلق آدم بأن سيكون من أبنائه القتلة والمفسدون، فرد الله عليهم بأنهيعلم ما لا يعلمون ،فالخير كل الخير في أن يجعل الإنسان خليفة في الأرض.[30]

لذلك ترتبط مشكلة الخير والشر عند الأشعري يحدث، كرته عن الإرادة الإلهية المطلقة . فالله مريد لكل ما حدث، وغير مريد لما لم يحدث، ولما كان الشر موجوداً في العالم فالله مريد له. فهو إذن يريد الكفر لأهل المعصية، ويريد الإيمان لمن يريد هدايته. وليس للإنسان أي اختيار فيما أراده له الله تعالى. ثم يذهب الأشعري إلى أبعد حد يمكن تصوره العقل، فيقول : إن الله خلق جماعة من الناس للنار وجماعة للجنة . وربما كان من الخير أن يقول : لتفسير وجود هذين الصنفين من الناس، إن الله تعالي يخلق أسباب الشر والخير، وإن هناك جماعة ستختار أسباب الخير فتعمل بأعمال أهل الجنة، وجماعة أخرى ستختار أسباب الشر، فتعمل بأعمال أهل النار، وعندئذ يكون للثواب والعقاب ما يبررهما من مسئولية الإنسان وحرية اختياره(31) ولقد استشهد الأشعري بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[سورة الأنعام، الآية: 125] أما تأويل ذلك فيعتمد على القول بأن الله تعالى يخلق أسباب الخير والشر. فيختار الإنسان أحد الجانبين بالقدرة التي خلقها الله له . فإذا انحرف العبد عن الخير خذله الله . وهذا إنكار لحرية الإنسان واختياره، ثم القول بان الإنسان مستحق للعذاب أو النعيم على أفعال لم يردها ولم يخلقها.

ومن الفلاسفة الذين كان لهم رأياً مميزاً في توضيح الخير والشر هو ابن سينا (980هـ– 1037م) وهو من عد الشر عرضياً جزئياً واعتبره ضروريا لوجود الخير، حيث يعتبره – الخير – يدخل في القضاء الإلهي دخولا بالذات لا بالعرض والشر بالعكس وهو على وجوه: أي يقســـم ابن سينا الشر إلى قسميـــن:

1- الشر بالذات وهو عبارة عن عدم مقتضي الطباع لما يناسبها من الكمالات الثابتة لها وأنواعها حسب طبيعتها وهذا النوع ليس بحاصل أصلا حيث لا وجود له .

وهو على وجوه : شر لمثل النقص الذي هو الجهل والضعف، والتشويه في الخلقة، ويقال شر لمثل الشرك والظلم والرياء، وبالجملة الشر بالذات هو العدم .

2- الشر بالعرض وهو عدم الكمال لما يستحق الكمال من الأشياء. وهذا النوع له وجود يطرأ على الأشياء بسبب المادة التي يلحقها لأمر يعرض لها في ذاتها أو لأمر طارئ عليها وذلك كأن يعرض للخلقة ما يمنعها من الوصول إلى كمالها فتجعلها أرداً مزاجاً وأعصى

جوها لقبول التخطيط والتشكيل فتصير الخلقة مشوهة ذميمة فليس التشويه لأن الفاعل قد جرم الخلقة كمالها أو منعها ولكن المادة نفسها لم تقبل فسبب النقص كامن في المادة وليس وارداً عليها من الفاعل، وهنا يكون الشر في المادة المطبوعة وليس في القوة الطابعة[32]

وابن سينا يقسم الشر بحسب وجوده إلى قسمين: فهو إما ذاتي أو عرضي وهذا التقسيم يتماشى مع تقسيمه للأشياء ذاتها بحسب وجود الشر فيها، حيث قسمها بهذا المفارقة.إلى خمسة وهى .

1- قسم هو في ذاته خير مطلق ولا مكان لوجود الشر أو إلحاقه به بوجه ما، وهذا يلزم وجوده لأن وجود ما لا شر فيه بوجه قد يعقل خيراً فيلزم وجوده وذلك كالعقول المفارقة .

2- قسم هو في ذاته شر مطلق ولا وجود للخير فيه بوجه ما فلا يلحقه ولا يتبعه في الوجود أو التصور العقلي وهذا يمتنع وجوده عن المبادئ المفترقة لأن وجود المبادئ المفارقة لا بد أن يفيض عنها المنفعة.

3- قسم يغلب عليه وجود الشر علي الخير ويعرض له أن يتبعه الخير وهذا أيضا يمتنع وجوده لأن عدمه مرجح على وجوده في العقل. [33]

4- قسم يغلب عليه وجود الخير. تكون غايته الذاتية خير ولكن يعرض له أن يتبعه شر ما فهذا يلزم وجوده لأن وجوده مرجح الاستحقاق علي عدمه وكل ما ترجح صدوره في العقل كفى ذلك في صدوره عن المبادئ المفارقة فيصدر.

5- أما القسم الذي يتساوى فيه الخير مع الشر فإنه لا وجود له حيث لا مرجح لوجوده هذا النوع فيلحق بما شره كثير على خيره.

والأشياء إنما رتبت ترتيباً خاصاً بحيث تؤدي إلى الخير الكلي العام ويلزم عنها الشر القليل العارض . وهذا يعني أن الشر ضروري الوجود في العالم . وتفسير ابن سينا للشر قد أخذ به ابن رشد في مناهج الأدلة، كما أخذ به الغزالي في المقصد وحال إليه ابن القيم في الشفاء العليل مع تنزيه للقضاء الأزلي عن الشر . [34]

ونستخلص من كلام ابن سينا عن مفهوم الخير والشر ما يأتي.

أ – أن نظام العالم قائم على تحقيق الخير ولكنه ممزوج بالشر القليل.

ب- أن الله تعالى يإلى تصور لذاته، ويريد الشر لما يتضمنه من الخير الكثير الموفي عليه.

ج- يرى ابن سينا أن الخير يفيض عن الله بطبعه لما يعقله من نظام الخير وتصوره لكماله سبحانه .

قد يؤدى كلام ابن سينا وبعض الفلاسفة عن الشر والخير إلى تناقض لا مفر له منه، فابن سينا يري أن الخير إنما يصدر عن الله على سبيل الفيض بالطبع والعلة – قد تأثر في ذلك بالأفلاطونية المحدثة(35) لقد انتقلت هذه النظرية إلى الفارابي وابن سينا فأخذا بها في تفسير وجود الشر في العالم . حيث يذهب الفلاسفة إلى تصور أن الشر ضروري الوجود في العالم، وأن وجود الخير يستتبع بالضرورة وجود الشر العارض فهو مراد لله ومقتضى له، وهذا خطأ . فإن الله لم يرد الشر ولم يقضه، وكان أولى بابن سينا والفلاسفة أن يفرقوا بين ما ينسب إلى الله وما ينسب إلى عباده، فإن أفعال الله الكونية كالأمراض والفقر والموت لا تسمى في عرف الشارع شراً، وإنما تسمي ابتلاء وفتنة.

نتائج البحث.

من خلال ما سبق توصلت إلى النتائج الآتية .

1- أن كل إنسان يملك قوة غريزية يميز بها بين الحق والباطل والخير والشر، والأخلاقي وغير الأخلاقي، وقد تختلف هذه القوة اختلافا قليلاً باختلاف العصور والبيئات ولكنها متأصلة في كل إنسان، فكل يحصل عنده نوع من الإلهام يعرفه قيمة الأشياء خيرها وشرها .

2- أن الخير والشر موجودان، وهما يوجهان الإنسان في سلوكه حسبماً يعتقده بمفهوم الخير والشر وهو مصيب في معتقده أن اتفق معه جميع الناس أو استوحاه من قلبه، وإلا فهو مخطئ أن تمخض عن خلل في الوجود والعلائق الإنسانية على حد تعبير كانط .

3- أن الله قادر على كل شيء وعالم بكل شيء، ويستحيل في حقه أن يوجد شيئاً إلا على أكمل ما يمكن أن يوجد عليه ذلك الشيء، بل يستحيل أن يوجد ما هو أحسن منه، وقد استنتج الفلاسفة من هذه الحقيقة قاعدة، أسموها الأشرف، ويريدون بها أن الله لا يوجد الأدنى مع إمكان وجود الأعلى وأيضاً يستحيل أن يوجد الشيء إلا من أجل الخير فقط . حتى جهنم وعذابها خير بالنسبة إلى تحقيق الغرض المقصود منها .

4- نسجل على مذهب ابن سينا والفلاسفة أنه يؤدي إلى تناقض لا مفر منه، فابن سينا يرى أن الخير إنما يصدر عن الله على سبيل الفيض بالطبع والعلة وما كان خيراً محضاً ويصدر

عنه الخير بالطبع فينبغي أ لا نتوقع صدور الشر عنه ولو بالعرض، بينما يذهب ابن سينا إلى التصريح بأن الله يريد الشر وأن الشر يدخل في القضاء الأزلي دخولاً عرضياً . وهذا تناقض واضح . فإن قوله بصدور الخير على سبيل الطبع والعلة وبأنه محض ينفي القول بصدور الشر عنه ولو بالعرض، وقوله بصدور الشر عنه بالطبع والعلة. فإثبات أحد القولين ينفي القول الآخر وهو قد قال بكل منهما، ولو أنصف ابن سينا لقال أن الله يفعل الخير مختاراً وليس بالطبع والعلة. وهذا لا تناقض فيه ولا اضطراب وهو ما جاءت به الشريعة وما تقره العقول.

5- وبمقارنة موقف ابن سينا بموقف المعتزلة يتضح لنا أن موقف المعتزلة كان أكثر تنزيهاً عن إرادة الشر وأكثر اتساقاً مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية.-- 6ترتبط مشكلة الخير والشر عند الأشعري بفكرته عن الإرادة الإلهية الالعباد وأن كل ما يفعله الله من العقاب في الآخرة لا يسمى شراً لأنه مستحق على العباد

7- أن القديس توما الأكويني يتفق مع فلاسفة اليونان ابتداء من سقراط على أن الجهل رذيلة تؤدي إلى الخطأ والشر وهذا دل على أن الأخلاق لديه مكتسبة طالما يستطيع بالعلم تجنب الوقوع في الخطأ والخطيئة .

المراجع:

1- على غلاب: النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الإسكندرية، دار المعارف، 1950، ط3، ص 179، 178.

2-محمد غلاب : مذهب بوذا في الفلسفة الشرقية، القاهرة، 1950، ط2، ص27،35.

3-محمد العريب الراوي: نات الوضعية المنقرضة، بيروت، 1995، ط1، ص231،227.

4-على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام مرجع سابق، ص179 .

5-عبد الستار الراوي: العقل والحرية، بغداد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، ط 1، ص 207، 208 .

6- الشهرستاني: حبيب: والنحل ج 2، 1968، ط مصر، ص 74، 79. انظر كذلك قاسم حبيب: الفلسفة والاعتزال في نهج البلاغة، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1987، ط 1، ص 140.

7-القاضي عبد الجبار: المغني ج5 الفرق غير الإسلامية، تحقيق محمد عمارة، 1971، ط مصر، ص 54.

8- إبراهيم بيومي مذكور: دروس في تاريخ الفلسفة،القاهرة، مطبعة الجنة التأليف والترجمة، 1953، ص 13.

9- المرجع السابق، ص 27.

10-أحمد محمود صبحي: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي،بيروت، دار النهضة العربية، 1992، ص 106.

12- توفيق كريسون: المشكلة الأخلاقية والفلسفية ،ترجمة عبد الحليم محمود، منشورات الجمعية الفلسفية المصرية ،1946، ص 135.

12- توفيق الطويل : أسس الفلسفة، القاهرة، دار النهضة العربية، 1990، ط 11، ص 425.

13-المرجع السابق: ص 426.

14-المرجع السابق، ص 427. وكذلك يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة،بيروت، دار القلم،ص 190.

15- زكي نجيب محمود: الموسوعة الفلسفية المختصرة،بيروت، دار القلم، ص 329.

16- المرجع السابق، ص 254.

17- توفيق الطويل: أسس الفلسفة مرجع سابق، ص 439.

18- عفيف عبد الفتاح: روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين،بيروت،1984، ط 24، ص 167،168.

19- القاضي عبد الجبار : المغني ج 6 التعديل والتجوير، القاهرة، وزارة الثقافة، ب ت، ص 29.

20- محمد السيد صبحي: في الفلسفة الخلقية لدى مفكري الإسلام، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، 1990، ص 139 .

21- أحمد محمود صبحي: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ،مرجع سابق، ص 128، 129 .

22- ابن مسكوي محمود: باب الأخلاق وتظهير الأعراق، تحقق عماد الهلالي، منشورات طليعة النور، العراق، 1426هـ، ط1، ص 238 ،240 .

23- زكي نجيب محمود: الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص 433 .

24- الخياط : الالجبار: تحقيق البير نصري، بيروت ،المطبعة الكاثوليكية، 1937، ص95 .

25- القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال، 1974، ط تونس، ص 119 .

26- القاضي عبد الجبار: المغني ج 4، مصدر سابق، ص 412.

27- محمد السيد: في الفلسفة الخلقية، مرجع سابق، ص 146.

28- المرجع السابق، ص 152.

29- محمود قاسم: دراسات في الفلسفة الإسلامية القاهرة، دار المعارف، 1973، ط5، 164 .

30-ابن رشد: مناهج الأدلة في عقائد الملة، تحقيق محمود قاسم،القاهرة، مكتبة، 1962، ط3،ص104.

31 -محمود قاسم:مرجع السابق، ص 169، 170.

32- ابن سينا: الشفاء (الإلهيات) ج 2، تحقيق سليمان دينا، القاهرة، دار المعارف، 1960، ص 414.

33- الشهرستاني: الملل والنحل ج 3، مصدر سابق، ص 103، 109 .

34- ابن سينا: الإشارات والتنبيهات ج 2، المطبعة المنيرية، 1925، ص 78 وما بعدها .

35-حيث يصرح أفلاطون بأن الأول هو الخير المحض، والخير لا يليق بشيء إلا به، وكل ما في العالم الأعلى والعالم الأسفل من الخير فليس ذلك من طباعه، وإنما يفيض عليه ذلك من الخير الأول لأنه مبدع الأشياء ومنه تنبعث الخيرات على قدر تقبل الأشياء للخير الذي يفيض منه وكلما ابتعدت أشياء الكون عن تقبل الخير المقاض عليها يكثر فيها الشر لأنها بذلك تكون لصيقة بالهيولى التي هي مصدر الشرور في العالم لأن الشر يكون عن نقص وضعف وهما من لوازم الهيولى. (انظر أثولوجيا أرسطو طاليس : ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص 26 وما بعدها)